

سماحة الإسلام ويسره

(الرفق واللين من مقاصد الشرع)

الحمد لله العزيز الوهاب، الغفار التواب، مجري السحاب، مسبب الأسباب، هازم الأحزاب، وأشهد أن لا إله إلا الله، شهادة مقر له بالوحدانية، وحده لا شريك له، ولا ند له، ولا مماثل له، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأشهد أن نبينا وعظيماً وشفعينا يوم العرض على الله محمداً، خير من صلى وصام، وخير من تعبد وتبتل، وركع وقام، قالوا: **تحب محمداً؟!؟؟** *** فأجبتهم إني بحب محمد أتعبد، أحببت فيه هُنائي وكرامتي *** وبراءتي من شر نار توقد، وشفاعة ترجي ليوم كريهة *** وقلبي بين النعيم أُخلد، و تطاولي بين الأنام بأني *** من أمة فيها النبي محمد. نعيش اليوم حول موضوع في غاية الأهمية الا وهو مسألة يسر الدين وسماحته.

أولاً: إن الدين يسر. (مفهوم الحديث ودلالته)

اليسر في اللغة ضد العسر، ويعني السهولة، والمرونة، والسَّعة، وتقول رجل موسر أي في سعة من المال والرزق، ورغد من العيش، ومنه قول الله تعالى: **وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ** ، أي وإن كان المدين معسراً، لا يقدر على وفاء دينه، فيصبر عليه صاحب الدين لحين ميسرة، فإن عجز فخير للدائن أن يتصدق عليه وأن يتنازل عن دينه حسبة لله!

واليسر إذا اسم جامع لكل معاني السماحة والسهولة، والمرونة، واللين والانقياد، وهو نقيض العسر والشدة، والتعنت، وضيق الأفق، والنظرة المحدودة القاصرة ، والتقعر فكل هذه المرادفات لا تعرفها الشريعة، ولا يقرها الدين الإسلامي.

وقد وردت مادة اليسر في كتاب الله في مواضع عديدة منها: قول الله تعالى: **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**، وأنت عندما تتأمل تلك الآية، تجدها شاملة جامعة، أي أن الله يريد دوماً للإنسان الخير وطريق السعادة، ولذا قال أهل اللغة، الباء في قوله سبحانه: بكم تسمى باء الإلصاق، أي كأن الله يريد من المؤمن أن يلتمس اليسر ويلتصق به، ولذا في الحديث **ليس من البر الصوم في السفر** (البخاري)

قال ابن سيده: يريد تعبير بالمضارعة لبيان أن الأمر مستمر، وأن الله يريد بعباده اليسر، في أحوالهم، كلها، لا في الصوم وحده، وعبر بالصوم لكونه تتحقق فيه المشقة، وكل ما كان فيه مشقه فالأولى فيه التيسير! فمراد الله هو اليسر والسهولة والوسطية، وقد عبر القرآن في مواطن عدة منها مثلاً: **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ**

ووردت مادة اليسر كذلك في قوله تعالى: **وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**، وهو من كلام ذي القرنين، فهو يعد من آمن وكان صالحاً في عمله وقوله، له الحسنى في الدنيا والآخرة، وسيلقى القول الجميل، الميسور، وقيل اليسر هنا أن يعلمهم ما ينفعهم، وما يلين قلوبهم ولذا ينبغي على المعلم أن يكون هينا مع طلابه، ييسر عليهم ويأخذ بأيديهم!

قوله تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا

عندما تتأمل تلك الآية، تجد أنها العديد من الإشارات والنكت البلاغية واللغوية، وتشتمل على العديد من اللطائف، السورة سميت بسورة الشرح، والشرح معناه الفرج، والسرور بعد الكدر، فتبدأ بتذكير النبي ﷺ بنعم الله عليه، وتقرير المولى سبحانه بصيغة الاستفهام لتلك المنن، ألم نشرح لك صدرك؟! أي شرحناه للإسلام بتعبك في غار حراء، وحمالك الله من رجس الجاهلية، فجئت من نكاح ولم تك من سفاح، **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام**، ولم تسجد لصنم، ولم تعبد وثناً، ولم تذبح لغير الله، ولم تتوسل لأحد سواه، قبل بعثتك وبعدها، وشرح الله صدرك، بإسلام أعز الناس وأحبهم لقلبك أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم من الصحابة الذين كانوا لك بمثابة هارون من موسى، والحواريين من عيسى! ووضعنا عنك وزرك، والوزر في العربية الحمل، والثقل، وكأن النبي ﷺ، يحزنه ما بقومه، ويحزنه أن يكونوا حصب جهنم، وتذهب نفسه عليهم حسرات، فالله يربط علي قلبه ويقول له، ليس عليك هداهم، ويقول له إنك لا تهدي من أحببت، ويقول له فلا يحزنك الذي يقولون، ويقول له: إنما عليك البلاغ!! ثم جعل ذكرك باق في العالمين فكلما ذكر الله ذكر اسم سيدنا رسول

الله، ففي كل فرض وفي كل وقت وفي كل تكبير يذكر اسم الله ثم نثني بسيدنا رسول الله ﷺ.

ثم يختم ربنا السورة بختام عجيب، فالفاء تسمى فاء الاستئناف، إن حرف توكيد ونصب، مع ظرف زمان متعلق بمحذوف، وتسمى مع المصاحبة، وتعني أن كل عسر يصاحبه يسر، واسم إن يسر وهو مؤخر، وعسر خبر مقدم، والتقديم والتأخير معناه أن كل عسر لابد له من يسر، وكل ضيق لا بد له من فرج، وكل كرب له سعة ومخرجا!، ثم أكد سبحانه أن مع كل عسر يسرا،

يقول أهل اللغة العسر في الآيتين واحد لأنه معرف بالألف واللام، أما اليسر فقد ورد نكرة للتفخيم والتعظيم، وبيان أن اليسر في الآية الأولى غير الثانية، فالعسر واحد واليسر متعدد، وكأن الحق سبحانه يريد أن يسرى علي قلب نبيه ويثبتته، ويطمئن أصحابه واتباعه من بعده، أن الضيق باب واحد، وجنده ضعيف، وأن اليسر أبوابه متعددة، وجنوده كثر، فالمشركون عيروا أهل الإيمان بالفقر، وهذا عسر وضيق فبشره ربنا سبحانه بأن الله سيفرج هذا العسر عاجلا وقد كان بغنائم بدر وغيرها، وخبره سبحانه أن العسر سيلازم امته من بعده، فبشره بأن الله سيجعل من بعد عسر يسرا، ومن بعد هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا!

ولذلك ورد في الأثر، لا يغلب عسر يسرين، وقيل: لو دخل العسر جحراً لدخل اليسر عليه، والله در الشاعر حيث يقول: تؤوب الصعاب إلى ضدها متى كنت بالله مستمسكا .

إن الدين يسر:

حديث عظيم وأصل من أصول الدين أخرجه الإمام البخاري وغيره من أصحاب السنن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ**» وأنا أتوقف هنا عند عدة أمور: 1- قول النبي ﷺ، إن الدين يسر، إن حرف توكيد ونصب، واسمها الدين وخبرها يسر، ولن حرف نفي واستقبال، يشاد فعل مضارع منصوب بلن وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة، الدين مفعول به مقدم، وفي بعض الروايات مرفوع

وأعرب على أنه نائب فاعل والمفعول به مقدم فاعله أحد مؤخر، والمعني ولن يشاد أو يتشدد مع الدين أحد إلا غلبه! وقد قدم المفعول به للاهتمام بأمره!

2- عندما تنظر للفظ الدين وقد عرف بالألف واللام، وهو ما يدين به الإنسان لرب العالمين، وقد عرفه النبي في حديث آخر إن دين الله يسر، ثم نكر كلمة يسر للتفخيم والتعظيم والكثرة، وبيان أن دين الله كله يسر، لا عسر، وأنه سهل لا غلبة فيه ولا ضيق ولا كدر، كما أن المعرفة تبين أن دين الله واحد، وأن طريقه واحده وأن شرعة أنبيائه واحدة، كلها اليسر، لا العسر، والتوسط لا التشدد، وأن ما عدا دين الله عسر، وتشدد، وتعنت ولا يمت لله بصلة. ولذلك ما خير النبي ﷺ بين أمرين إلا واختار أيسرهما ما لم يكن إثماً! (البخاري) وهو القائل ﷺ يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا، وَبَسَّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا (البخاري) فلن يتشدد أحد إلا غلب!

3- عندما تقف مع تلك الأوامر الاربعة في الحديث وهي (سدودا- قاربوا - ابشروا- استعينوا) تجدها أنه اشتملت على مقامين، ثم بشاره ثم استعانة وتوكل، أما المقامين فالأول مقام الأولياء الأصفياء الانقياء، العلماء، تقول العرب استد الشيء أي استقام، وسدد الفعل والفعل سديد والرأي سديد أي صواب مائة بالمائة، والسداد التوفيق والإصابة والتميز، فالنبي ﷺ يقول سدودا، أي قولوا قولاً سديداً وفعلوا رشيداً، وعملاً كاملاً! كيف في الصلاة مثلاً: كيف تكون فيها السداد؟! بأدائها في أوقاتها! بكامل أركانها! باستحضار الخشوع فيها! مع نوافلها، وسننها، مع مستحباتها داخل الصلاة وبعدها وخارجها، كيف؟ أن يصلي الرجل الصلاة في جماعة في المسجد، وهو في أبهى زينة، لا تفوته تكبيرة الإحرام، مع أدعيته في سجوده وركوعه، واستحضاره لعظمة الخالق سبحانه، ثم صلاته للنوافل مع ختم الصلاة، والصلاة على النبي المختار، فهذا من باب السداد والكمال، في الصوم مثلاً: يستحب له قراءة القرآن والقيام في الليل، وتجنب فضول الكلام، مع الاستغفار والإنابة والتوبة والصلاة على النبي ﷺ، وقس على ذلك فهذا هو السداد والرشاد والتوفيق والصواب، وهذا لا يتأتى إلا لمن وفقه الله، وعلمه وشرح صدره، وربط على قلبه، وهو من الفتوحات التي يفتحها الله على أهل العلم وطلاب العلم!

أما المرتبة الأدنى فهي المقاربة، ومقاربتك للشيء أي دنوك منه، ومراد النبي صلى الله عليه وسلم هو المقاربة والدنو من الصواب والنافلة بعد أداء الفريضة كاملة، فلا يعنى اليسر التفريط في الفرض، أو التقصير فيه، فالفرض من الدين بمثابة الروح من الجسد، والتفريط فيه يعنى هدمه بالكلية!

ثم البشارة بالجنة والفوز، والسعادة لكل هين لين، لكل سمح بشوش، لكل وسطي معتدل، لكل مسرور بدين الله وشرعته، فأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، ثم ختم النبي ﷺ بلفظ الاستعانة، وهي طلب العون على أمور الدين وإدائها كما أمر الله، وطلب الجنة بتلك الأمور الثلاثة التي بينها سيدنا رسول الله ﷺ (الغدوة والروحة وشيء من الدلجة) أما الغدوة فمن الفجر وحتى الضحى والمعنى الحفاظ على صلاة الفجر كما قال ربنا: **(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا) أَوْصَانِي خَلِيلِي بِثَلَاثٍ لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةُ الضُّحَى، وَنَوْمٌ عَلَى وَثَرٍ. (البخاري) والدلجة صلاة الليل وفي الحديث، من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة (صحيح الترمذي) فعلي المؤمن أن يغتنم تلك الأوقات وأن يسدد ويقارب، وأن يكن سهلا لينا، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ **حُرِّمَ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيْنٍ سَهْلٍ قَرِيبٍ مِنَ النَّاسِ (المسند وصحيح ابن حبان) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمَحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى (البخاري)****

من أين يأتي التعسير والتشدد؟ أو بمعنى آخر كيف تدرس علوم الشرع؟

كثير من الناس يظن أن دراسة أي علم تكون دراسة ذاتية مستقلة، للعلم وحده، وهذا تصور خاطئ ونظرة قاصرة، وطامة كبرى، وآفة من آفات العصر، فلا بد لدارس أي علم أن يدرس ما يتعلق بهذا العلم، وخصوصا علوم الشريعة، فإن قلنا بأن علوم الشريعة أو العلوم المتعلقة تعلقا أصيلا بالدين هي الحديث وعلوم القرآن والتفسير، والفقه، وأصوله، وغيرها من العلوم المتعلقة بالكتاب والسنة، فإنها لا تدرس وحدها، بمعنى لا يمكن دراسة الحديث كدراسة ذاتية مستقلة، أو دراسة الفقه وحده دون غيره، فلا بد لكل دارس لتلك العلوم من اسس وقواعد وشروط على رأسها:

1- دراسة اللغة العربية، وكل ما يتعلق بها، من مفردات وتراكيب، وغريبها، وأن يعرف فقه اللغة واختلاف اللهجات، والشاذ منها والقياسي، ومعرفة قواعد الإعراب والنحو والصرف، حتى يكون عارفاً بمراد الكتاب والسنة، فلا ينطق إلا صواباً، ولا يغير المعنى من حيث لا يدري، وكم من كوارث وفتاوى وطوام جاءت بسبب جهل قائلها باللغة وفقهها، وهذا يذكرني بأبي الأسود الدؤلي لما مر برجل، أعراي أو أعجمي وهو يقرأ بجر النبي ﷺ في براءة فجعل الرسول في جملة المشركين حاشاه! فكان سبباً في وضع علم النحو، والإعراب بالرفع على أنها مبتدأ خبره محذوف تقديره ورسوله بريء منهم، وقرأ بعضهم بالنصب على اعتبارها عطف على لفظ الجلالة! وشكل القرآن الكريم بالنقاط ثم بالحركات بعد ذلك علي يد الخليل بن أحمد الفراهيدي، لحفظ كتاب الله من اللحن والتحريف، وكم نسمع من إمام يُحرف ويلحن، أو مؤذن يؤذن خطأً بالحركات، فبدلاً من أن ينطق محمداً بالنصب يرفعها، وسمعت أحدهم يرفع ما بعد حرف الجر، وقس على ذلك من كوارث قد تنتج عن عدم فهم جيد للغة ولمعانيها ومفرداتها!

وقد تحدث القدامي والمعاصرون في قضية شروط المجتهد أو المفتي وقالوا له شروط منها:

1. أن يكون عالماً بكتاب الله يعلم الخاص والعام، والمطلق والمقيد، والمحكم والمتشابه، ويعرف أقوال كبار المفسرين، مع معرفة بأسباب النزول، وأوجه القراءات والصحيح من الضعيف في الروايات، والراجح والمرجوح! مع معرفة تامة بآيات الأحكام والمعاملات، مع المعرفة بإعراب الآيات وما يتعلق بها من لغة وبلاغة وبيان! مثلاً: آيات الجهاد والحرب والقتال، يعرف الناسخ من المنسوخ فيها، يعرف ألفاظ القرآن فلك أن تتخيل، أن لفظ الخوف في القرآن له أكثر من مدلول منها: الخوف المعروف، ومنها العلم والمعرفة ومن ذلك قول الله تعالى: {فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيَمَا حُدُودَ اللَّهِ} يقول: إن علمتم. وكقوله في سورة النساء: {وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ} يعني علمت، {مِنْ بَعْلِهَا} والأمة بمعني العصابة والجماعة من الناس، وتعني الإمام إن إبراهيم كان أمة ... وتعني الأربعين وتعني الملة، وقس على ذلك في كتاب الله الكثير!

2- المعرفة التامة لأحاديث سيدنا رسول الله ﷺ، ومعرفة علم الرجال، وعلم الرواة والجرح والتعديل، وأقسام الحديث وأنواعه وعلله، وصحيحه وسقيمه، وما يستدل به

وما لا يستدل به، ومعرفة ألفاظ الحديث وغريبها، ومفهوم مراد رسول الله منها وذكرنا نصا مثل القيراط وقلنا أن القيراط في كلام العرب يراد به 6/1 الدرهم ويراد به الأرض وفي كل حديث ومناسبته يتضح المراد منه!

3- أن يكون عالما بالإجماع والمختلف فيه، ويعرف الفرق بينها، فكم من متحدث يذكر أجمعت الأمة أو اجمع الفقهاء ثم يتضح أن كلامه باطل، وأنه مجرد نقل، مثل مسألة الحجاب مثلا، وغيرها من المسائل، ولا بد أن يعرف أن الأجماع ليس شرطا لقوة الرأي في كل الأحوال فربما خالف الفقيه الجماعة وكان رأيه أصوب نظرا لأدلته وبراهينه!!

4- أن يكون عالما بالقياس، كما قال الشافعي رضي الله عنه : " **من لم يعرف القياس فليس بفقيه** "، وقال الإمام أحمد: " **لا يستغني أحد عن القياس** ".

5- أن يكون عالما بالعربية كما مر وذكرنا 6 - أن يكون عالما بمقاصد الشريعة الإسلامية وكلياتها، وأن يكون لديه القدرة على التمييز بين الأصل والفرع، والمندوب والمباح والفرض والواجب والمكروه وهكذا!

7- أن يكون عارفا بمصالح الناس فالفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان، وتتوافق مع العادات والأعراف والتقاليد.

8- أن يكون عدلا ضابطا مشهود له بالإيمان غير مرتكب لكبيرة، أو يجاهر بالمعصية والفسوق!

فإن توافرت لديك تلك الشروط فتقدم للفتوى والحديث للناس وإلا فاحذر!!

مظاهر اليسر في الشريعة الإسلامية:

يقول الحق سبحانه { **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** } وَقَالَ تَعَالَى : { **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** .. } ، والناظر في الشريعة الإسلامية، يرى فيها العديد من مظاهر اليسر، من ذلك التيمم عند فقد الماء، عن جابر قال: **خَرَجْنَا فِي سَفَرٍ فَأَصَابَ رَجُلًا مِنَّا حَجَرٌ فَشَجَّهَ فِي رَأْسِهِ، ثُمَّ احْتَلَمَ، فَسَأَلَ أَصْحَابَهُ: هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيْمُمِ؟** فقالوا: **مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ. فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - ﷺ - أَخْبَرَ بِذَلِكَ فَقَالَ: "قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللَّهُ! أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ ! إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ**

يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعَصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ" (السنن الكبرى للبيهقي) وهنا سيدنا رسول الله يدعو عليهم، من باب التقريع، والنهي عن التصدر للفتوى بغير علم، أو دراية، ثم يقرر قاعدة، مهمة، بقوله ﷺ (إِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ) فالضرورات تقدر بقدرها، ودرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فمع وجود الماء في مثل هذه الحالة يجب التيمم، لكون الماء يقتل كما في حالة صاحبنا هذا!

ومن مظاهر اليسر الصلاة على أي كيفية، إن لم تستطع قائما فقاعدا أو على جنب، أو على كرسي، أو جالسا، المهم لا تضيع الصلاة، ومن مظاهر اليسر وضع الصوم عن الحائض، تخفيفا عليها ورحمة بها، من مظاهر اليسر، التدرج في كفارة اليمين، بحسب طاقة الشخص، فهناك من يقدر على الإطعام، وهناك من يستطع الصوم، وهناك من لا يقدر على شيء من هذا فتكفيه التوبة الصادقة، من مظاهر اليسر في الشريعة، جواز الفطر في السفر في أيام رمضان، من مظاهر اليسر في الشريعة اباحة الاختلاف في الفروع وعليه كان نشأة ما عرف بعلم الفقه، وعلم أصول الفقه، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» واختلاف أهل الفقه والاجتهاد في بعض المسائل رحمة للأمة، والفتوى كما قلنا تختلف باختلاف المكان والزمان، وهناك عدة قواعد لا بد من مراعاتها عند تناول الفتوى منها:

1- الأحكام تتغير بتغير الأعراف، يقول ابن القيم رحمه الله: مما تتغير به الفتوى لتغير العرف والعادة موجبات الأيمان والإقرار والنذور وغيرها فمن ذلك ان الحالف اذا حلف لا ركبت دابة وكان في بلد عرفهم في لفظ الدابة الحمار خاصة اختصت يمينه به ولا يحنث بركوب الفرس ولا الجمل... ومن الفتاوي مثلا التي تختلف باختلاف الزمان والمكان وتبعا للأعراف، الفتوى بأن التدخين حرام شرعا، لما يترتب عليه من آثام عظيمه كسرطان الرئة وغيرها من الامراض الخطيرة!

2- ما ورد به الشرع مطلقا وليس له حد في الشرع ولا اللغة يرجع فيه إلى العرف والعادة، أما الأحكام القطعية، المبنية على النصوص الشرعية التي لا مجال للاجتهاد فيها، كأصول الدين، والمبادئ العامة للشريعة، والأحكام التعبدية، والمقدرات الشرعية، وأصول

الفرائض، وأصول المحرمات، ونحوها من الأحكام التي بينها الشارع وأكملها أصولاً وفروعاً، فهي غير قابلة للتغيير، وعليه فأمور الفتوى

نماذج للتسامح:

ومما يؤكد سماحة الإسلام أن بعض السرايا كانت إذا ارتكبت مخالفات كان عليه السلام ينصف من وقع عليه ظلم من جنوده.

ففي سرية نخلة في رجب سنة 2 هـ التي كان أميرها عبد الله بن جحش الأسدي وقعت مخالفات لم يأذن بها رسول الله - ﷺ - إذ كانت المهمة التي كلف الرسول بها هذه السرية مقصورة على تقصي أخبار قريش ولم يأمرهم بقتال ، وبخاصة أن السرية كانت في رجب ، وهو من الأشهر الحرم التي حرّم الله فيها القتال إلا إذا قوتل المسلمون ، لكن السرية رأت عيراً لقريش تحمل مواد غذائية فهجموا عليهم وقتلوا منهم واحداً وأسروا اثنين وفرّ رابع كان في العير ، ولما قدموا المدينة بالغنائم أنكر عليهم - ﷺ - ما فعلوا وقال : **"ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام"** ووقف التصرف في الغنائم، ثم عاد عليه السلام فأطلق الأسيرين إلى حال سبيلهما ، ثم أعطى دية المقتول إلى أولياء دمه. ولعل الرد على هذا جاء من القرآن نفسه، في قوله تعالى: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**

ولما فتح مكة ﷺ، قال قولته المشهورة، **يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَيَّ فَاعِلٍ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ قَالَ أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَاقُ، وَهِيَ هِيَ** صلاح الدين الأيوبي أمر بالمحافظة على كنيسة القيامة ، فضرب بذلك مثلاً عظيماً في سماحة الإسلام وبني قريباً منها مدرسة للفقهاء الشافعية ، ورباطاً لصلحاء الصوفية ليثبت للصليبيين أن الإسلام دين السماحة والسلام وهذا بجانب إحسانه لأسراهم وإطلاق سراحهم وعلاج جرحاهم **. وإن أحد من المشركين استجارك**

ومن أروع ما يساق تدليلاً على سماحة الإسلام وعدالته ما ورد في المبسوط أيضاً للسرخسي حيث قال : **" إذا بعث الحربى عبدا له متاجرا إلى دار الإسلام بأمان، فأسلم العبد بعد دخوله دار الإسلام بيع وكان ثمنه للحربى مالكة "** . هل خطر على عقل بشر

من فقهاء القانون الدولي الأوروبي مهما سمت بهم الحضارة مثل هذا التشدد في العدالة ورعاية حقوق الأعداء.

إن المكارم لا تحصل بالمنى *** لكن لها بالتضحيات سبيلا ... فلكم سما للمجد من أجدادنا *** بطل أقام على السمو دليلا

فسل المعالي عن شجاعة خالد *** وسل المعارك هل رأته ذليلا وسل الحضارة إن رأيت بهائها *** عمن أنار لهديتها القنديلا.. وسل المكارم والمعالي هل رأيت *** من بعدهم في ذا الزمان مثيلا هذى المكارم عندهم كبداية *** لسلوك درب ما يزال طويلا ... في الأرض مجدهم ولكن قلبهم *** لجنة الفردوس رام رحيلًا ... وخذ المكارم لا تخف أعبائها *** عبء المكارم لا يكون ثقيلا

جمع وترتيب الفقير إلى عفو مولاه د محمد سالم الشافعي الأزهري

أستاذ التاريخ الحضارة الإسلامية المساعد بالأزهر الأنور و خادِم سيرة المصطفى ﷺ